المحاضرة الأولى

الأدب والأحاسيس النفسية:

توطئة:

يُولد الإبداع الأدبي أو الفني عن لحظة نفسية انفعالية، تسمح للذات المبدعة إنتاج خطاب يكون أكثر استجابة وإثارة في نفوس المتلقين، وهذا من خلال تجسيدها لمنظر حسّي أو مشهد خيالي، لأنّ الإبداع الأدبي له قدرة عقلية نافذة في خرق مشاعر وعواطف المتلقين، لذا اهتم به علماء النفس خصوصا في النصف الثاني من القرن العشرين؛ حيث ركزوا فيه على العقل الباطن موطن العقد النفسية التي يُخفي فيها المبدع عن دوافع هذا العمل، كما يبحثون أيضا عن الأثر الذي يُخلفه هذا الإبداع الأدبي على نفسية المتلقين.

1.مفهوم المنهج النفسي: يُعد المنهج النفسي أحد المناهج النقدية الحديثة، التي تهتم بدراسة العمل الأدبي تبعا لسياقه الخارجي ،وقد عرفه أحد الدارسين بقوله:" ذلك المنهج الذي يُخضع النص الأدبي للبحوث النفسية ،ويحاول الانتفاع من النظريات النفسية في تفسير الظواهر الأدبية ،والكشف عن عللها وأسبابها ومنابعها الخفية وخيوطها الدقيقة ،وما لها من أعماق وأبعاد وآثار ممتدة"، بمعنى أنّ مهمة التحليل النفسي ماهي إلا تعرّية البنية السطحية والغوص في البنية العميقة للنص الأدبي لاستخراج الإبداعات الفنية وترجمة الرموز التي بواسطتها نتعرف على نفسية المبدع وماذا يريد أن يوصله للمتلقي.

أما تسمية علم النفس ـــ كما هو شائع اليوم ـــ فهو في الأصل مصطلح يوناني، وهو مشتق من لفظتين psychu بمعنى (الروح)،و logos (علم) ، ويدرس النفس البشرية في مختلف حياتها ،حيث بدأ التحليل النفسي بوصفه وسيلة جديدة لعلاج الاضطرابات النفسية والعصبية مع فرويد الذي وضع أسس وآليات وطرق ممارسته ومصطلحاته، وفي هذا السياق يتحدد علم النفس باعتباره العلم الذي يهتم بالكائن الإنساني كأولية يتجلى في رصد مختلف السيرورات النفسية والعقلية التي تنتظم وفقها حياته".

2. الأصول الفكرية والفلسفية لعلم النفس الأدبي:

لقد اتفق معظم الفلاسفة أنّ النفس البشرية هي الباعث الأول على حدوث الإحساس والتفكير ومشاعر الحب والكره ، كما اعتبروها "جوهر روحاني بسيط ،مجرد من المادة ،قائم بذاته ،لا حيّز له وهو لا يتغير بتغير الظاهرة النفسية ،ولا يتبدل بتبدلها "،وأول من بادر في البحث فيها وأنشأ لها تصورات هو الفيلسوف اليوناني سقراط الذي" نجده صاحب الشعار المكتوب على مدخل معبد "دلفي" :اعرف نفسك بنفسك" ، وما زال الناس حتى اليوم يرددون هذا الشعار على اختلاف طبيعتهم ومستواهم، بينما أفلاطون فيرى أنّ النفس هي جوهر الحياة ،وقسم النفس البشرية إلى ثلاثة أقسام: النفس الغضبية، والنفس الشهوانية ،والنفس العاقلة، كما يُظهر لنا أيضا موقفه العدائي الواضح من الشاعر، فهو يصفه بالجنون لأنّ أقواله ماهي إلا منافذ للشك والريبة، لهذا طرده من مدينته الفاضلة ،ووصفه بأنه "مجنون ملهم أو مريض عصابي."

أما فيما يتعلق المعلم الأول أرسطو فقد ربط النفس البشرية بعاملين هما: الخوف والرحمة، أما الأول فيقصد به "حزن أو اضطراب ناشئ عن تخيل شر داهم سيسبب تدميرا أو أذى" ، أما المصطلح الثاني فهو نوع من "الألم الذي يثيره منظر الشر القاتل أو الأليم ،الذي يصيب من لا يستحقه" ، وقد سمّى هذا الأثر النفسي الانفعالي الذي يحدثه كل من الحزن والرحمة بفكرة التطهيرcatharsis. وهي كلمة إغريقية تعني التحرر من التوتر والانفعالات المكبوتة داخل النفس البشرية وقد عرف "ساراسين" (1654-1614) معنى التطهير بأنه " صهر العواطف وتوجيهها إلى التوازن النفسي التام ، بمعنى أن التطهير علاجا للنفس من طبائعها الشريرة (Humeurs peccantes) ، حيث يعالج الشر بالشر ،وذلك جريا على ما أثبته الطب الحديث من مداواة الشيء بمثله Homéopathé. ومن هنا فإن المشاهد لمشاعر الخوف والرحمة في المأساة يسعى عن طريق الانفعال إلى التخلص من هاتين العاطفتين والتّطهر منهما". ونخلص أنّ التطهير له أثر خاص في معالجة النّفس البشرية ،وهذا ما نلمسه في التراجيديا الإغريقية التي تساهم في تخليص النفس من أضرار الرحمة والشفقة الزائدين، ويعبر عنها أرسطو بأنها أداة تطهيرية "يُفزع المشاهد من رؤية الأفعال العنيفة والمأساوية فتأخذه الرحمة بالضحايا ويصيبه الحزن"، فهذه المشاهد المسرحية تجلب للمتلقي الراحة النفسية والمتعة واللّذة ولا يقصد بها "اللّذة الدنيئة

الحقيرة، وإنّما يقصد اللّذة السّامية التي تمنح متعة جمالية مصدرها الشّعور،لا العقل. فالإحساس الذي يصحب النظر إلى شيء جميل يشبه المتعة التي تصحب التفكير الفلسفي".

كما أثار أرسطو أيضا في كتاب "السياسة" عنصرا مهما في تخليص النفس من الانفعالات الضارة وهي الموسيقى التي يراها تلعب دورا مهما في جذب المتعة والنشوة والابتهاج الغامر، الذي تتركه العواطف على نفسية المتلقين "والتي تؤثر بقوة في بعض الأرواح على درجات متفاوتة ،ومنها على سبيل المثال الخوف والرحمة وكذلك النشوة ،وبعض الناس عرضة بصفة لهذه العاطفة الأخيرة ،ونحن نشاهد أنهم تحت تأثير الموسيقى والأناشيد الدينية التي تدفع الروح إلى الهياج يهدأون كما لو كانوا قد عولجوا طبيا وتطهروا" .

كما ازداد بعد ذلك اهتمام النقاد والشعراء الرومانسيين بالجانب النفسي في نتاجهم الأدبي، حتى إننا نجد شاعرا مثل "ووردزورث" يؤكد في مقدمة ديوانه المواويل الغنائية (Lyrical Ballads) وجود اختلافات بين الشاعر وسائر البشر، لا من حيث الدرجة بل من حيث النوع، إذ يرى أن الشاعر يتميّز بطبيعة خاصة، فهو حسب رأيه يكون "أكثر حساسية، وأكثر حماسا ،وأكثر دقة ،ولديه معرفة أعظم من غيره بالطبيعة البشرية ،كما أن روحه تكون أكثر اتساعا وشمولا وقدرة على التفكير وعلى الشعور بما يعتمل في باطن الروح الإنسانية من انفعالات ".

وفي مطلع القرن العشرين برزت دراسات في التحليل النفسي داخل المجال الأدبي، على يد مفكرين نفسانيين مثل فرويد ويونغ وجونز وغيرهم. وقد اختلفت مواقف نقاد الأدب والفن وعلماء النفس تجاه ما قدّمه التحليل النفسي؛ فمنهم من أيّده تأييدا كاملا، ومنهم من رفضه رفضا تاما، بينما اتخذ آخرون موقفا وسطا بين الاتجاهين. وسنتناول هذه التوجهات بشيء من التفصيل في المحاضرات المقبلة.

3. تجلّيات الأحاسيس النفسية في الأدب العربي وتراثه النقدي:

كان الأدب في التراث العربي مرآةً صادقةً لعوالم النفس الإنسانية، وفضاءً رحبًا لتجسيد الأحاسيس والانفعالات التي تختلج في أعماق الإنسان. وتجلت هذه الأحاسيس النفسية في التعبير عن الفرح والحزن، والخوف والقلق، والحب والألم ،وقد عبّر بها الأدباء والشعراء بطرائق مختلفة وبفنيات عميقة تعكس وعيهم بتعقيدات النفس البشرية. ومن أمثال هؤلاء عبد القاهر الجرجاني، ولا سيما في كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" ، والتي تتجلى فيهما طيف من أطياف الأسلوب البياني في الكلام العربي و الخطاب القرآني ،المشبع بالمعاني العميقة لا يدركها إلا الحاذق بصناعة البلاغة ؛لأنّ المعاني تكون مؤثرة عندما تكون إلى " النّفوس أعجب ،وكانت النفوس لها أطرب ،وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحة أقرب". لهذا كي يتحقق تفاعل الرسالة من قبل المتلقي أن يعمد المتكلم إلى تحقيق عنصر الإثارة الفكرية والنفسية وتحصل لذة الاستماع والاقناع نلهذا يجب على المتكلم "أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ،فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات...".

لقد تنبه الجرجاني إلى الأحاسيس النفسية والجمالية في الخطابات الأدبية سواء كانت شعرية أم نثرية ، والتي تؤثر تأثيرا بليغا في الوجدان وعوالم النفس يقول الجرجاني في هذا الصدد :"وإن توقفت في حاجتك أيها السامع للمعنى الى الفكر في تحصيله ، فهل تشك في أن الشاعر الذي أداه إليك ، ونشر بزه لديك ، قد تجمل فيه المشقة الشديدة، وقطع إليه الشقة البعيدة ،وأنه لم يصل الى دره حتى غاص، وأنه لم ينل المطلوب حتى كابد منه الامتناع والاعتياص" . كما أضفى جهازا مصطلحيا هاما يُعنى بالتأثير النفسي والجمالي ، أو ما يسمى باللذّة الفنية أو منغصاته وحصرها في الأوجه التالية:

1ــ المصطلحات ذات التأثير الجمالي: "الأريحية، الأنس،الهزّة، الطرب،الارتياح، البهجة، الحلاوة، النشوة، الأنس،الألف، الروح، الروق، الخفة، الإيناس ،تشفي الغلة..."، هذه المصطلحات ينشرح لها صدر المتلقي، فتزيده أريحية نفسية بالتلذذ والإمتاع بالخطاب.

2 ــــــمصطلحات النظر العقلي : ونذكر منها :دقة الفكر ، لطف النظر، فضل روية ، نفاذ خاطر، قوة ذهن ، شدة تيقظ.

3ــــ المصطلحات المنغّصة للأثر الجمالي: الثّقل ،الوحشة ،التكدير،التنغيص. النفرة، الاضطراب، القلق...".

ومما يستحق الوقوف عنده أن الجاحظ متأثر كثيرا بآراء الفلاسفة، وأعلم بكتبهم وصناعة كلامهم، وأنّ العرب تتميز عن غير الأمم بقريحة خطابية وبيانية متميزة، سواء كان في الشعر أو النثر أو رواية الكلام، ومن القدماء الذين أشادوا بتراث الجاحظ وشهدوا له بالإجادة في تأسيس علم البلاغة، ولعل شهادة أحد المعاصرين أكثر انصافا وعدلا عن حقيقة

عبقرية الجاحظ ، إذ يرى عبد السلام المسدي أن الجاحظ بمثابة موسوعة علمية تنهض منه جميع العلوم، يقول:"ولعل هذه الغزارة مع التنوع والشّمول هي التي دفعت بعض الباحثين المحدثين الى اعتبار الجاحظ رائد مدرسة أطلقوا عليها اسم المدرسة الانسانية مع ما في المصطلح من أبعاد تعاطفية ذات منزع أخلاقي. ولعلنا لا نجازف إن نحن اعتبرنا أن الجاحظ خير من مثّل في تاريخ الحضارة الاسلامية التيار الشّمولي في دراسة الظواهر المتّصلة بالإنسان، وهو التيار الذي استقرت اليوم أسسه فغدا مزيجا من التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاجناس البشرية وعرف في المدرسة الأمريكية بالانثروبولوجيا".

لقد اهتم الجاحظ بالمعنى الجميل الواضح المؤدي إلى الإقناع من خلال الأثر الساحر الذي يتركه في نفسية المتلقي، لأنّ المعنى العفيف واللفظ السليم يكون أوقع للقلب قبل العقل، لأن "البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجَهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأنّ حاجة النطق إلى الحلاوة ،كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتُثْنى به الأعناق، وتزيَّن به المعاني" . واللفظ عنده هو أقرب إلى أذهان السامعين البعيد عن التعقيد وله وقع خاص في القلوب يقول: "ومتى كان اللفظ كريما في نفسه متميزا من جنسه، وكان سليما من الفضول، وبريئا من التعقيد حُبّب إلى النفوس واتصل بالأذهان والتّحم بالعقول، وهشّت إليه الأسماع وارتاحت له القلوب وخفّ عن الألسن وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره، وصار في ذلك مادة للعالم ورياضة للمتعلّم الرّيفي". فما يقتضيه كلام الجاحظ في قراءته السطحية أن الجاحظ يولي اهتماما باللفظ على المعنى ،وأنه دعامة الخطاب ، مستدلين بقوله في كتاب الحيوان :والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ، والبدوي والقرويّ، وإنّما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنّما الشّعر صناعة، وضرب من النّسج، وجنس من التّصوير". فالجاحظ حريص على انتقاء اللفظ والاعتناء به، وأعطى أهمية كبيرة لراحة السامع يقول "وكما ينبغي أن يكون اللفظ عاميا ساقطا سوقيا ،فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا. إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا. فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي". فعلى المتكلم أن لا يتعصب للفظ على حساب المعنى، بل عليه اختيار المعاني الملائمة القريبة من فهم السامعين دون تكلف أو تصنع لأن؛ "المعنى الحقير الفاسد ،والدنِّى الساقط ،يعشّش في القلب ثم يبيض ثم يفرَخ، فإذا ضرب بجِرَانِه ومكَّن لعُروقه، استفحل الفساد وبزَل، وتمكّن الجهل وقرح، فعند ذلك يقوى داؤه، ويمتنع دواؤه؛ لأنَّ اللفظ الهجينَ الردىّ، والمستكره الغبيّ،أعلقُ باللسان، وآلف للسمع ، وأشدُّ التحاماً بالقلب". وقال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصوّرة في أذهانهم ...مستورة خفية... لا يعرف الانسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه... وإنما يُحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل،وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريبا، وهي التي تلخص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيدا، والمقيد مطلقا والمجهول معروفا، والوحشي مألوفا، والغفل موسوما، والموسوم معلوما".

أما كتابه "البخلاء" الذي يُعد من أبرز الأعمال النثرية في التراث الأدبي العربي، لما يحمله من قيمة فنية وفكرية، ولما يكشفه من وعيٍ عميق بالنفس الإنسانية وسلوكها. فرغم الطابع الساخر الذي يغلب على الكتاب، فإن الجاحظ لم يقصد الإضحاك المجرد، بل اتخذ من السخرية أداة فنية لتحليل ظاهرة نفسية واجتماعية معقّدة هي **البخل**، بوصفه سلوكًا إنسانيًا نابعًا من دوافع نفسية عميقة. فأول ظاهرة نفسية يعالجها الجاحظ في كتابه البخلاء هي ظاهرة البخل ، فهي في نظره صفة تظهر الحالة النفسية التي تنتاب الانسان من خوف وقلق من المستقبل ، مما يجعله صراع دائم بين رغبته في الاكتناز وخوفه من الانفاق، فالبخيل يسعى إلى الحفاظ على صورة اجتماعية مقبولة، لكنه في الوقت ذاته يعجز عن تجاوز دافع البخل. وقد نجح الجاحظ في تصوير هذا التناقض من خلال الحوار والسرد، مما يكشف عن صراع نفسي داخلي يعانيه البخيل بين متطلبات المجتمع ورغبات الذات.

أما حازم القرطاجني فيرى أن الشعر له وقع جميل تميل إليه النفس ،حيث يقول:" الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، و يكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمن من حسن تخييل له و محاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام أو قوة صدقه أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك، و كل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب، فإن الاستغراب و التعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي

انفعالها و تأثرها"، فحازم القرطاجني يرى أن الصورة شعرية تحكمها قوّة التّصوير والانفعال النّفسي، لأنّ "التخييل أن تتمثل للسّامع من لفظ الشاعر المخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيّلها وتصوّرها، أو تصوّر شيء آخر بها، انفعالا من غير رويّة إلى جهة من الانبساط والانقباض"، فالتأثير النفسي حاضر بقوة في مخيّلة الشاعر لبناء صورة أساسها الواقع.